عمران بن حطان

منذ استيلاء الأمويين على الخلافة الإسلامية ووثوبهم إلى الحكم كانت تواجههم مشكلة معقدة عسيرة الحل ، وهى محاولة إخضاع العرب الذين عاشوا فى شبه جزيرتهم قروناً طويلة حياة طبيعية حرة طلقة لقوانين الحضارة وقواعد الاجتماع ، وإرغامهم على احترام أصول الحكم وكلمة الدولة . والحياة الاجتماعية المدنية المنظمة نقيض الحياة البدوية الطليقة من القيود ، لأن الحياة فى المجتمع تستدعى كبح الأهواء وكبت الشهوات وتقليم أظفار الجهل والحماقة والاندفاع ، وتستلزم آداب الخضوع والطاعة والاعتراف بالسلطة واحترام القانون ، وهى صفات تعارض ما نشأ عليه البدوى فى صحرائه وما ألفه آباؤه وأجداده ، وكان بنو أمية فى حاجة ماسة إلى شد أواصر ملكهم وتوطيد دعائمه ، ويقتضى ذلك نقل العرب من طور إلى طور ، ولم تتح لبنى أمية الفرصة المناسبة ولا المهلة الكافية للتنقل التدريجى بالعرب فى سبيل الحياة المنظمة وأخذهم باللين والمرونة ، ولم يكن من الميسور لهم الاكتفاء بتقرير السلطة الدينية لأن الاعتماد على الدين وحده والتحكك برجاله وأحكامه كان يعرض ملكهم من ناحية أخرى للخطر والزوال ، ولم يكونوا مطبوعين على التدين ، وليس لهم عبقرية فى الأمور الدينية ؛ ولذا لم يكن أمامهم سوى طريقين ؛ طريق الحيلة والخبث والدهاء والمراوغة ؛ وطريق الشدة والجبروت والقسوة والإرغام وعدم التردد ؛ وكانت سياستهم تترجح على الدوام بين المماكرة والمصانعة والمداراة وبين الأخذ بالشدة والصرامة واصطناع الجور والطغيان وعلى هاتين الخطتين سار

الأمويون خلال الحقبة التي اضطلعوا فيها بأعباء الخلافة ؛ وكانت تظهر هذه السياسة جلية واضحة في كبار رجالهم وأعاظم ساستهم مثل معاوية وعبد الملك وهشام ؛ فمعاوية كان يلجأ إلى المخادعة والحيلة . فإذا لم يكفيا اعتمد على الغدر والدس والغيلة . فإذا لم يبلغ هدفه ولم يحقق غايته شهر السيف وشمر للحرب . وكان عبد الملك قبل أن يتجهز للحرب يعمل الحيلة ويبث الدهاء والمكر ، فلم يمنعه تشميره لحرب مصعب بن الزبير وأخذه العدة لمنازلته من أن يرسل الرسائل إلى رجال مصعب وأنصاره يعدهم الوعود ويمنيهم الأماني ليتخلوا عنه وينحازوا إلى صفوف الأمويين .

وكان هناك حزبان سياسيان دينيان متعارضان لم يمكنا الأمويين من الانصراف إلى معالجة المشكلة المعقدة ومواجهة الموقف بالحلول المناسبة . وهذان الحزبان هما الشيعة والخوارج ، والشيعة على اختلاف مذاهبهم هم أنصار فكرة وراثة الخلافة الشرعية في الإسلام ، وهم في ذلك متأثرون إلى حد كبير بالتقاليد الفارسية والعقلية الإيرانية ، وكان رأيهم أن الوارث الشرعي للخلافة هم أولاد علي من السيدة فاطمة ، وقد توسع بعض فرقهم وأفسح المجال لسائر أولاد علي مثل الشيعة الكيسانية التي قالت بإمامة محمد بن الحنفية ، والأمويون في نظر الشيعة مغتصبون للخلافة ظالمون لعلي وأولاده ، وكان رأيهم أن الأمور لا تستقر والأحوال لا تتحسن إلا إذا سقطت الدولة الأموية وعاد الأمر إلى أولاد علي .

أما الخوارج فهم أنصار الفكرة الديمقراطية في اختيار الخليفة ، وهم يقولون بالانتخاب العام ، والإمامة عندهم تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس ، وفي مذهبهم ناحية تنحرف شيئاً ما إلى الفوضوية ، وهي القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين ، وكانت المعتزلة تجيز ذلك في حالة واحدة وهي «أن يكون جميع المسلمين عدولا ليس بينهم فاسق» ولا مانع عند الخوارج من أن

يكون الإمام عبداً أو حرًّا أو نبطيًّا أو قرشيًّا . وكان الخوارج - على بطولتهم وشجاعتهم - من التعصب الشديد وضيق الذهن العجيب بحيث يرون أن الإيمان وقف عليهم ، وأن غيرهم من الفرق الإسلامية كفرة ملاحدة يجوز قتلهم بغير ندم ولا تأثم ، ولم يتورعوا فى حربهم عن قتل الشيوخ والأطفال والنساء .

وقد كانت هاتان الفرقتان مصدر خطر وقلاقل ومتاعب للأمويين لا تنتهى ، ولم يحجم الأمويون عن استعمال الشدة البالغة والقسوة المتناهية لإخماد نيران هذين الحزبين والقضاء على قوتهما . وثورة الخوارج فى عهد مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين فى الشرق كانت من أقوى الأسباب التى مهدت السبيل لانتصار فرع الشيعة الذى ناصر العباسيين ومكنهم من الظفر بالخلافة .

والاضطهاد الشديد الذى استهدف له رجال هذين الحزبين فى العهد الأموى جعل تاريخهما حافلاً بألوان البطولة وضروب التضحية ، ممتلئاً بالمواقف المشرقة والمشاهد المؤثرة ، وقد يأخذ الإنسان على الشيعة إسرافها فى تقدير الأشخاص مهما كانت صفاتهم الأخلاقية الممتازة ومناقبهم النادرة ، والسمو بهم إلى مراتب العبادة والتأليه ، وقد لا يرتضى الإنسان عقيدة الخوارج المتجهمة الجافة الضيقة ، ولكنه لا يملك فى الحالتين إلا الإعجاب بهذا الإخلاص للعقيدة والتفانى فى نصرة المبدأ الذى أظهره رجال هاتين الفرقتين ، وهما لم يتركا فى سجلات التاريخ الإسلامى صفحات مجيدة من الشجاعة والإخلاص والوفاء والارتفاع فوق الضرورات الدنيوية فحسب ، وإنما قد أغنتا الأدب وزادتا فى ثروته زيادة جديرة بالتقدير والإعجاب والدراسة ، ولعل أدب الشيعة أعظم أثراً وأحفل بمختلف العواطف من أدب الخوارج ، وربما كان السبب فى ذلك أن الشيعة كانوا يتمثلون المذهب الذى يدينون به مجسماً فى شخص ، متمثلاً فى حياة ، ومثل هذا التمثل أكثر تحريكاً للشاعرية

وإثارة للأحاسيس والأخيلة ، أما الخوارج فقد كانوا أميل إلى المذهب المجرد وأكثر تعلقاً بالفكرة العارية ، وأثر الفكرة التى تأخذ الصورة الإنسانية وتمتزج بالعواطف البشرية أفعل بالنفس وأكثر استنهاضاً للحمية من الفكرة المجردة والمبدأ الجاف .

وقد كان عمران بن حطان السدوسى من الشخصيات البارزة فى أدب الخوارج ، وفى طليعة فقهائهم والمدافعين عن قضيتهم ، وحياته واتجاهاته وأفكاره وعواطفه تمثل جانباً كبيراً من حياة جماعة الخوارج وتفكيرها أو ما يسمى فى الاصطلاح الحديث «عقلية الخوارج» .

وما عندنا من المعلومات عن عمران قليل شحيح لا يكفى لتكوين صورة صادقة وافية أو فكرة صحيحة مستكملة عن تطور أفكاره وسيرة حياته ، والمعروف عنه أنه كان ينتمى إلى تلك الطائفة من الخوارج المعروفة بالصفرية ، وقد درس الحديث حتى أصبح فيه ثقة من الثقات ، وحفظ القرآن ، وتعمق فى معرفة المذاهب الإسلامية ويقولون إنه أدرك الصحابة وروى عن السيدة عائشة وأبى موسى الأشعرى ، قال عنه أبو الفرج فى الأغانى «كان قبل أن يفتن بالشراة مشتهراً بطلب العلم والحديث ، ثم بلى بذلك المذهب فضل وهلك» وهناك روايتان مختلفتان عن خروجه من مذهب أهل السنة ودخوله فى المذهب الخارجى ، فالرواية الأولى تقول إنه كان من أشد الناس خصومة للحرورية حتى لقيه أعرابى حرورى فخاصمه وجادله فخصمه وتغلب عليه وعلاه بالحجة فصار عمران حرورياً ورجع عن رأيه ، والرواية الثانية تذهب إلى أنه تزوج حمزة بنت عمه ليردها عن مذهب الشراة فذهبت به إلى رأيهم وهذه الرواية على ما يبدو أقرب إلى الحق من الرواية الأولى ، لأن رجلا فقيهاً متمكناً مثل عمران لا ينتقل من مذهب إلى مذهب إلا بعد إطالة التفكير وإعمال الروية ،

وقد كانت ابنة عمه ذات جمال وشخصية وبديهة حاضرة ، وكان عمران على دمامته وزهادته وورعه وخشونة مظهره يحمل قلباً رقيقاً وعاطفة مشبوبة ، وقد أحب ابنة عمه هذه وأعجب بها وقال فيها :

يا حمز إنى على ما كان من خلقى مثن بخلات صدق كلها فيك
الله يعلم أنى لم أقل كذباً فيها علمت وأنى لا أزكيك

ولكن رجلاً ممتازاً من طراز عمران لا يكفى الحب أو الإعجاب وحده ليحمله على تغيير عقيدته ، وغاية ما فى الأمر – على ما أُرجح – أن حبه لابنة عمه الحسناء جعله يعيد النظر فى عقيدته ، ومهد السبيل لانتقاله إلى مذهب الخوارج ، والظاهر أنه وجد فى المذهب الخارجى ما يلائم تفكيره ويتجاوب مع نوازعه النفسية واتجاهاته الأخلاقية ونظرته للحياة ، وقد فاجأته مرة ابنة عمه بقولها « أنا وأنت فى الجنة » فعجب عمران وقال لها « من أين علمت ذلك ؟ » فأجابته « لأنك أعطيت مثلى فشكرت ، وابتليت بك فصبرت ، والشاكر والصابر فى الجنة » .

وقالت له مرة « ألم تزعم أنك لا تكذب فى شعرك ؟ » فقال « بلى » فقالت : أفرأيت قولك .

وكذاك مجزأة بن ثو ر كان أشجع من أسامة

أيكون الرجل أشجع من الأسد ؟ .

فقال عمران « نعم إن مجزأة بن ثور فتح مدينة كذا والأسد لا يقدر على فتح مدينة » .

ومن هذه الأخبار القليلة يتبين لنا أنها لم تكن امرأة عادية ، وإنما كانت امرأة ممتازة لامعة من النساء ذوات الشخصية اللواتى يرغمن أزواجهن على احترامهن ومراجعة أفكارهم ومذاهبهم .

وقد كان عمران من قعدة الخوارج ، وكانت طائفة الصفرية من الخوارج تجيز القعود ، قال عنهم الشهرستانى فى الملل والنحل «لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين فى الدين والاعتقاد» ويقول أبو الفرج «إنه كان من القعدة لأن عمره طال فضعف عن الحرب وحضورها واقتصر على الدعوة والتحريض بلسانه» . ولسنا نعرف تاريخ دخوله فى مذهب الخوارج لنتبين هل أخذ بذلك المذهب بعد أن عنت سنه وضعف عن خوض غمرات الحرب أو أنه كان لا يزال قوى البنية صادق العزمة ولكنه كان يخشى أن يموت فى حومة القتال فتتعرض بناته لذل اليتم وهوان الحاجة كما فى تلك الأبيات التى ينسبها له أبو عمرو الشيبانى ، ويعزوها المدائنى لغيره وهى :

لقد زاد الحياة إلىّ حبًّا ... بناتى إنهن من الضعاف
مخافة أن يذقن الذل بعدى ... وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجوارى ... فيبدى الضر عن كرم عجاف
ولولاهن قد سومت مهرى ... وفى الرحمن للضعفاء كاف

ومهما يكن من الأمر فإن الحجاج ضاق به ذرعاً بعد دخوله العراق فى سنة خمس وسبعين هجرية ، واتهمه بأنه يحرض عليه ، ويفتن الناس عن عقيدتهم ، واشتد فى طلبه حتى هرب منه عمران ولم يزل ينتقل فى أحياء العرب وعاش عيشة الطريد المفزع فى ضوء النهار والنابى الوساد فى ظلمات الليل . ولولا أن عمران كان رجلاً أيد العزم قوى الشكيمة لانكسرت سورته ولانت مهزته ، ولما دخل شبيب الخارجى الكوفة ومعه امرأته غزالة وتحصن منه الحجاج وأغلق عليه قصره ترصد عمران هذه السانحة وأرسل إلى الحجاج هذه الأبيات البليغة الساخرة الشامتة :

أسد على وفى الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى مخالب طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كأمس الدابر

وأقل شدة من هذه الأبيات كان يكفى ليلج فى طلبه رجل مرهوب السطوة شديد البطش ألد الخصومة ميال إلى العنف مثل الحجاج بن يوسف ، فلحق عمران بالشام ، ونزل على روح بن زنباع ، وكان مقرباً من عبد الملك ابن مروان ومن رجال دولته ، ولما سأله روح عن نسبه ادعى أنه من الأزد ، وكان روح كريماً مضيافاً سمح النفس رضى الأخلاق ، وكان يسمر عند عبد الملك ، فقال له ليلة «يا أمير المؤمنين إن لى جاراً ما أسمع من أمير المؤمنين خبراً ولا شعراً إلا عرفه وزاد فيه» فقال له عبد الملك «ممن هو؟» فقال روح «من الأزد» فقال عبد الملك «إنى سمعتك تذكر لغة نزارية وصلاة وزهداً ورواية وحفظاً ، وإنى لأحسبه عمران بن حطان فهذه صفته» فقال روح «وما أنا وعمران ! ولعل السبب فى خطور اسم عمران ببال عبد الملك أنه جاءه فى أثناء ذلك كتاب من الحجاج يقول فيه «أما بعد فإن رجلاً من أهل الشقاق والنفاق قد كان أفسد على العراق وخيبهم بالشراية ثم إنى طلبته فلما ضاق عليه عملى تحول إلى الشام فهو ينتقل فى مدائنها ، وهو رجل ضرب طوال أفوه أزرق» واتفق بعد ذلك أن أنشد عبد الملك قول عمران يمدح عبد الرحمن ابن ملجم قاتل على ابن أبى طالب :

يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذى العرش رضواناً
إنى لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

ثم سأل أصحابه قائلا : «من يعرف منكم قائل البيتين؟» فسكت القوم جميعاً ، فقال لروح «سل ضيفك عن قائلهما» فقال روح «إنى سائلة وما أراه يخفى على ضيفى ، ولا سألته عن شىء قط فلم أجده إلا عالماً به» ولما عاد إلى

منزله قال لعمران «إن أمير المؤمنين سألنا عن من الذى يقول وروى له البيتين – فلم يكن عند أحد منا علم» فقال له عمران «هذان البيتان لعمران ابن حطان فى ابن ملجم قاتل على بن أبى طالب» فقال له روح «هل فيها غير البيتين تفيدنيه ؟» فقال عمران «نعم» .

لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عريانا

فغدا روح فأخبر عبد الملك ، فقال له «من أخبرك بذلك ؟» فقال «ضيفى» فقال عبد الملك «أظنه عمران بن حطان ، فأعلمه أنى قد أمرتك أن تأتينى به» فقال روح «أفعل» وعاد روح إلى ضيفه وقال له «إنى ذكرتك لعبد الملك فأمرنى أن آتيه بك» فقال عمران «كنت أحب ذلك منك وما منعنى ذكره إلا الحياء منك ، وأنا متبعك فانطلق» فدخل روح على عبد الملك «فقال له «أين صاحبك ؟» فقال «قال إنى متبعك» فقال عبد الملك «أظنك والله سترجع فلا تجده» فلما رجع إلى منزله إذا عمران قد مضى ، وإذا هو قد خلف رقعة فى كسوة عند فراشه وإذا فيها يقول :

يا روح كم من أخى مثوى نزلت به ... قد ظن ظنك من لحم وغسان
حتى إذا خفته فارقت منزله ... من بعد ما قيل عمران بن حطان
قد كنت ضيفك حولا ما تروعنى ... فيه روائع من إنس ومن جان
حتى أردت بى العظمى فأدركنى ... ماأدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك «ابن زنباع» فإن له ... فى النائبات خطوباً ذات ألوان
يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمن ... وإن لقيت معـــدياً فعدنانى
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت ذاك آيات مطهرة ... عند التلاوة فى طه وعمران

وهو فى هذه الأبيات القوية المؤثرة الصادقة التصوير يعتذر لروح بن زنباع عن فراره ويصف حياته العاصفة الممتلئة بالخطوب والمغامرات ويشير إلى تأبيه على الطغاة والطغيان نزولا على أحكام القرآن وابتغاء وجه الله .

ويعود بعد ذلك إلى التنقل فى أحياء العرب حتى أفضى به التسيار إلى قرقيسيا بالجزيرة حيث نزل بزفر بن الحارث الكلابى ، وكان يطيل فى الصلاة فجعل الشبان يتعجبون من صلاته ، وانتسب لزفر أو زاعيا ، واتفق أن قدم على زفر رجل من أهل الشام ، وكان هذا الرجل قد رأى عمران بالشام عند روح ابن زنباع ، فصافحه وسلم عليه ، فقال زفر للشامى « أتعرفه ؟ » قال نعم « هذا شيخ من الأزد » فقال زفر مستنكراً « أزدى مرة وأوزاعى أخرى ! إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت عائلاً أغنيناك » وأوجعته هذه الكلمات التى جابهه بها زفر فأجابه « إن الله هو المغنى » وهرب بعد ذلك وخلف له رقعة فيها :

إن التى أصبحت يعيا بها زفر ... أعيت عياء على روح بن زنباع
ما زال يسألنى حولاً لأخبره ... والناس ما بين مخدع وخداع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله ... كف السؤال ولم يولع بإهلاع
فاكفف كما كف عنى إننى رجل ... إما صميم وإما فقعة القاع
واكفف لسانك عن لومى ومسألتى ... ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع
أما الصلاة فإنى لست تاركها ... كل امرئ للذى يعنى به ساع
أكرم بروح بن زنباع وأسرته ... قوم دعا أوليهم للعلى داع
جاورتهم سنة فيما أسر به ... عرضى صحيح ونومى غير تهجاع
فاعمل فإنك منعى بواحدة ... حسب اللبيب بهذا الشيب من ناع

واستأنف حياة الفار الشريد الخائف المرعوب الذى يرى فجاج الأرض كأنها كفة حابل ويخيل إليه أن كل ثنية ترمى إليه بقائل حتى نزل بعمان واستقر به

المقام ويسر أمره فبلغ الحجاج مكانه فطلبه فهرب منه ونزل فى طسوج من طساسيج السواد إلى جانب الكوفة . وكان نازلاً على رجل من الأزد ، وأكرم الرجل مثواه ولم يثقل عليه بالسؤال .

فقال عمران مادحاً أسرته :

نزلت بحمد الله فى خير أسرة ... أسر بها فيهم من الأنس والخفر
نزلت بقوم يجمع الله شملهم ... ومالهم عود سوى المجد يعتصر
من الأزد إن الأزد أكرم معشر ... يمانية طابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمناً لاكمعشر ... أتونى فقالوا من ربيعة أو مضر
أو الحى قحطان وتلك سفاهة ... كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهم إلا يسر بنسبة ... تقربنى منه وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله واحد ... وأولى عباد الله بالله من شكر

وقضى عمران فى تلك الحياة البائسة الحزينة تسع سنوات على الأرجح . وقد لونت هذه الحياة القلقة النابية نظرته بلون قاتم ، وبصرته بسرعة تقلب الأحوال ودثور الأشياء ، ومن شعره الذى يعبر عن هذا الشعور قوله :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فإنها ... سحابة صيف عن قريب تقشع
كركب قضوا حاجاتهم وترحلوا ... طريقهم بادى الغيابة مهيع

وقوله :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ... ريب المنون وأنت لاه ترتع
أفقد رضيت بأن تعلل بالمنى ... وإلى المنية كل يوم تدفع
أحلام نوم أم كظل زائل ... إن اللبيب بمثلها لا يخدع

وروى أنه مات فى تواريه سنة أربع وثمانين هجرية ، وطويت بموته

صحيفة حياة لا تخلو - على ما بها من انحراف والتواء وشذوذ - من النبل والثبات وقوة احتمال الخطوب ومصابرة الشدائد فى غير ضراعة ولا تراجع بل فى تحد ملحوظ ومقاومة متصلة .